

سجّال حميد لثقافة جديدة

الشيخ جعفر المهاجر

على أثر مقالتي التي نُشرت تحت عنوان (حول معادلات حساب تولد الأهلة) (السفير 8207) الثلاثاء 29 / 1 / 1999 تلقيت جملة مراجعات تحمل تساؤلات قلقة. ها أنا أجمل التعليق عليها.

(1)

السجّال الذي جرى هذه السنة بين أنصار الأطروحة الفلكية في إثبات بداية وختام شهر الصيام، وبين أنصار الرؤية البصرية ووسائل إثباتها، لم يكن سيئاً كله، على الرغم من أنه ترك انطباعاتاً مختلفاً تماماً؛ بل إننا نستطيع أن نقول، بقدر كاف من الثقة بصحة ما نقول، إن الحسن والنافع منه هو أكثر بكثير من السيئ والضار. فلننظر إلى مجمل ما جرى بمنظار ماذا يبقى وماذا يتلاشى، ماذا يستمر وماذا ينقطع. إذ ذاك يمكننا أن نرى الأمة بكامل الوضوح تجتاز الجسر من طور إلى طور من نمط مفهومي - سلوكي إلى نمط مفهومي سلوكي متقدم. طبعاً لن يصل الجميع إلى الطرف الآخر في الوقت نفسه. لكن النكوص إلى الوراء صار بحكم المستحيل، بدليل هذا السجّال العام العلني المفعم بالحياة، وأيضاً بدليل أن الجمهور الذي منح الأطروحة الفلكية ثقته، وبنى عمله عليها ليس قليلاً وإن يكن حتى الآن أقلية نسبياً فضلاً عن أنه نخبة ممتازة منتشرة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي أي أنها في وضع مناسب لنقل أفكارها ومواقفها إلى الأكثرية المهياة لتلقيها، لأنها أعني الأكثرية متبرمة ضمناً الاجتماعي وما يتبعه عاجزة عن أن تتخذ طريقها نحو مخرج سليم. ما من ولادة طبيعية دون ألم. لكن الألم مهما يكن عنيفاً، فإنه مؤقت عابر. المهم هو الولادة بذاتها. وحتى لو وصل السجّال إلى نتائج متباعدة، فإنه صحي لأنه علامة حيوية ولأنه يدور في فلك صحيح. وإذ يلتزم جميع أطرافه بما يملكون بالفعل من أدوات علمية وأخلاقية فإنه يغدو عامل طمأنينة للناس بأن شؤونهم في أيد قوية قادرة تبحث وتتأمل وتتجاوز، وربما تختلف بنية صادقة وقلوب سليمة لخيرهم جميعاً.

(2)

الأوان لم يفت بعد على ترشيد السجالات وتحويله إلى حوار حقيقي آمن ومثمر. ومعلوم أن الحوار هو قيمة إضافية على قوة البحث والتأمل تؤهل أطرافه للوصول إلى ملتقى جديد غير الذي انطلق منه كل منهم.

هذا الترشيح هو مسؤولية الجميع.

هي مسؤولية المختصين، ما كان منه فقيهاً وما كان منه كونياً، الذين عليهم تحصين الخلاف، بحصره داخل الإطار المعرفي لا يتعداه، مادة وسلوكاً شرط توفير عنصر الشفافية له، بحيث يبقى الجمهور قادراً على متابعته في أولوياته ووجهات نظر أطرافه ومستند كل منها.

وهي أيضاً مسؤولية القاعدة المؤمنة. وذلك إذ تصر على التمسك بحقها الطبيعي في المعرفة والإصلاح. ولازم ذلك أن ترفض أن تكون شاهداً غائباً، يشهد شهادة عملية بما لم ير ولم يعرف، وتأبى أن تسير حيث لا ضوء منير. وبالطريق الأولى، أن تسير في درب لا يؤدي إلى تقدمها المعنوي.

(3)

إن موارد النزاع الرئيسية غير منحصرة في حجية أو عدم حجية قول الفلكي. بل هناك مورد تفصيلية، لا بد من أن تكون موضوعاً للبحث، حتى بعد أن نحزم أمرنا في نقطة النزاع تلك. من ذلك:

هل إمكانية الرؤية رؤية الهلال شرط للحكم ببدء الشهر؟ حتى بعد أن يثبت فلكياً الشهر الجديد يبدأ مع لحظة بدء الهلال دورة جديدة، بصرف النظر عن إمكانية أو عدم إمكانية رؤيته. من المعلوم أن الرؤية هي حالة إدراكية تحكي الواقع مع تمام شروطها فقط. ورؤية الهلال الجديد تدخل فيها جملة عوامل هي فضلاً عن العامل الرئيس أعني موقع كل من الشمس والقمر العلاقة بين هذين والشخص المشاهد، وقدرة العين البشرية على التقاط التضارب بين درجة إضاءة كل منها فضلاً عن العوامل الطقسية: امتصاص الغلاف الجوي لأشعة الضوء الآتية من القمر درجة الحرارة والرطوبة عند مكان المشاهد، تلوث الجو .. الخ.

من الواضح أن هذا الشرط يُخرج المسألة برمتها من اعتبار الرؤية مجرد طريق ليمنحها قسطاً من الموضوعية. حقاً لا يعيدها إلى موقعها القديم. ذلك أن من الممكن عند أصحاب هذه الأطروحة أن

نضع لإمكانية الرؤية معايير زمنية تؤدي عند تمامها إلى الحكم ببداية الشهر حتى لو لم يكن الهلال مرثياً بالفعل.

ثم إن هناك المسألة المعنونة بـ (اختلاف الآفاق). من المعلوم إن أفق الشمس والقمر متعدد بعدد أوقات اليوم لأن الأرض بمقتضى كرويتها يكون لكل بقعة على خط الطول منها مشرق خاص ومغرب خاص. في مسألة (اختلاف الآفاق) يُبحث هل أن الاختلاف يؤثر على اليوم القمرى حيث يمكن أن يكون يوم معين أول الشهر في بقعة دون أخرى.

نرجح أن هذه المسألة الزمنية لا ثمرة عملية لها، لأن الذي يختلف بين بقاع الأرض هو اليوم وليس حكمه. الوقت لا يعود إلى الوراء، إلا إذا كان المشاهد يتحرك بعكس اتجاه حركة الأرض بسرعتها أو أكثر.

(4)

خلاصة القول:

السجال ما يزال في بدايته. ولا بد من تحويله حوار يتوسّع من أجل الوصول للمعرفة وأخلاقيها وتوفير شرط الشفافية له.

وبقليل من التأمل نستطيع أن نرى أنه يضعنا على بداية طريق جديد. لن يبقى بالتأكيد محصوراً في المسألة التي أطلقته. بل هو يحمل بذور تغيير نوعي ويؤسس لثقافة جديدة. وليس علينا إلا أن نقوده على الطريق الصحيح.